

الصهيونية في مرآة الفكر العربي المعاصر العلاقة بين الصهيونية والتاريخ اليهودي

● د . احمد برقاي
جامعة دمشق

القسم الاول

— ١ —

مهما حاول المؤرخ او المفكر عربيا كان او غير عربي ان يعزل اليهودية عن الصهيونية ، فانه لا محالة مخفق . فمفاهيم الصهيونية الاساسية انما نبعت من اليهودية اساساً وقبل كل شيء على الرغم من لبوس « الحداثة » الذي تزينت به بعض التيارات الصهيونية .

ولاشك ان العربي مدفوع بعوامل كثيرة لاقامة التمايز بين اليهودي والصهيوني . ذلك ان العربي مسلماً كان ام مسيحياً ، علمانياً او متديناً ، ينظر الى الدين اليهودي اما كاحد الاديان السماوية الشرقية ، او كجزء من تراث الشرق القديم ، هذا ناهيك عن وجود عدد كبير من اليهود الذين لم يندرجوا في الصهيونية او لم يتخذوا منها ايديولوجيا تعبر عن مصالحهم ، وباستطاعة المرء — وهولا يستطيع ان يحكم استناداً الى الشك غير المعزز — ان يذكر من المفكرين اليهود المعاصرين امثال ناعوم تشومسكي وردنسون وغيرهم ممن لا يفكرون في اطار الحركة الصهيونية ، بل ويعتبرونها ايديولوجيا عنصرية مناهضة للنزعة الانسانية .

ومع ذلك فلا يمكن تجاهل ان الصهيونية ايديولوجيا يهودية قبل كل شيء انتشرت في اوساط اليهود دون غيرهم او اعتنقها اليهود دون سواهم . والاشكال الذي يواجهه الباحث هو : هل اليهودية تعبر عن انتهاء ديني ام انتهاء اثني ؟ سنؤجل الاجابة عن هذا السؤال الى حينه ، بعد ان نرى كيف نظرت بعض المفكرين العرب الى قضية علاقة الصهيونية باليهودية .

يرى البعض ان الصهيونية ليست الامتداداً لليهودية القديمة، فجورجي كنعان مثلاً ينطلق من الفرضيات التالية: ان وثيقة الصهيونية في استملاك ارض فلسطين قائمة في كتاب العهد القديم (١). «والصهيونية المتجسدة في دولة اسرائيل ليست بنت وعد بلفور كما يدعي مع الاسف معظم الدارسين وانما هي بنت الوعد الاول، وعد «الله» لابراهيم في حدود القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وليست صنعة هرترزل نبي الصهيونية في اواخر القرن التاسع عشر بل هي صنعة موسى، نبي الصهيونية الاول. (٢)» الصهيونية حركة دينية ودعوة قومية، قطعت على نفسها عهداً بتحقيق العهد الاول الذي قطعه «الله» لبني اسرائيل وتحقيق الرؤى الدينية والامال اليهودية» (٣).

«الصهيونية حركة عدوانية توسعية، حركة دينية سياسية تستند في دعواها الدينية الى وعد «يهوه» لآباء اليهود بتمليكهم ارض كنعان» (٤). ان اسرائيل تجسيد للرؤى والتنبؤات «فمنذ السبي الاشوري والبابلي، وهم يرنون بحسرة الى فلسطين ويتطلعون بامل ورجاء الى يوم العودة الى صهيون. الهيكل وارض العسل واللبن. وبعد خراب الهيكل وبدء الشتات، قوي الامل وقوي الرجاء، حتى باتت التنبؤات والرؤى خاصة رؤيا الخلاص، بواعث قومية تحذو بهم الى التجمع والتكتل وشحذ العزائم للعودة الى ارض الرب ومهد الانبياء» ويضيف «وجاءت الصهيونية تتبنى تحقيق التنبؤات وتنفيذ رؤيا الخلاص. فالصهيونية قائمة في جذر الديانة اليهودية والديانة اليهودية، قومية تجسدت في الحركة الصهيونية» (٥).

ويرى كل من هانئ الهندي ومحسن ابراهيم في كتابها الصادر في دمشق ١٩٥٨ «اسرائيل» فكرة... حركة... دولة» «ان اليهود والصهيونية اسم واحد ومضمون واحد حتى ولو اعتبرنا الثانية تجاوزاً، الوجه السياسي الحديث للاولى، كما يحلو للبعض ان يفعل حين يريد ان يميز ويفرق بين الاسمين (٦) ويضيفان قائلين: «ان الصهيونية لم يبتدعها تيودور هرترزل ولم يقرر وجودها المؤتمر الصهيوني ١٨٩٧، انها ليست فكرة جديدة فهي في الواقع ولدت في اللحظة الاولى من اليوم الاول، لتشريد اليهود من فلسطين ومع الزمن نمت هذه الفكرة وتطورت صعداً عبر الاجيال من خلال الصلوات والادعية ومن خلال المشاريع والاعمال» (٧).

والصهيونية — كما يريان — ملتزمة باليهود ودينهم وهي جزء من تفكير اي يهودي. يرضعها طفلاً ويسير بهديها ووحيتها.... وهذه الفكرة — الصهيونية — زرعت بذورها كما يقول هابريوم ولت مملكة «اسرائيل» على يد الاشوريين في القرن الثامن ق. م ونمت بعد سبي القدس على يد نبوخذ نصر في القرن السادس ق. م (٨).

ويتابع مؤلفا (اسرائيل فكرة ، حركة ، دولة) قائلين : « اليهودية دين وقيم . اليهودية عقيدة ونظرة حياة معينة لجموعة خاصة من البشر لها خصائصها المتميزة الواضحة . اليهودية كمعتقد لجماعة عرفت بتاريخها الطويل غير المشرف في فلسطين وخارجها ... والصهيونية في جوهرها ليست بمختلفة عما تقدم ذكره من حيث الجوهر . فالصهيونية هي الشعب اليهودي في طريقه الى فلسطين ... والصهيونية هي العقيدة القومية للشعب اليهودي ووسيلته من اجل استعادة ارض الاباء والاجداد برأي مناحيم بيغن ... والصهيونية هي وجه اليهود الحقيقي ... وهي الصفة المقصورة على العناصر اليهودية التي اوكلت لها مهمة التطرف امام العالم » (٩).

واخيراً « الصهيونية معتقد قديم جدا . واليهود هم معتنقو هذا المعتقد والصهيونية هي اليهودية في العمل المنظم لغزو فلسطين وما وراءها » (١٠).

وبناء على النظر الى الدين اليهودي والصهيونية وبوصفهما شيئاً واحداً يخلص مؤلفا « (اسرائيل) فكرة ، حركة ، دولة » الى ان « الذين يعتبرون اليهودية مجرد دين وليست قوة منظمة متماسكة لن يستطيعوا ان يدركوا ضخامة العدو الذي نقائله وجهاً لوجه في فلسطين ان اليهودية ليست ديناً عادياً كبقية الاديان ، انها رابطة متعصبة تشد معتنقيها بصلات اشبه ما تكون بالقربى الحية ... ان اليهودية ليست رابطة ، انها قوة فاعلة محركة يلمس اثرها في كل مجتمع يعيش فيه اتباعها ان اليهودية ليست كلاماً فارغاً وقولاً لامضمون له ، انها قوة ضخمة تسيطر على الحكومات والهيئات والاحزاب في عدد كبير من بلدان العالم » (١١).

ويرى السيدس . ناجي ان « اليهودي بظل يهودياً قبل كل شيء ، ويتضح من هذا بطلان زعم امكانية التفريق بين القومية واليهودية ، والشرعية اليهودية او الزعم بان الصهيونية شيء واليهودية شيء آخر » (١٢).

لقد عرضنا نماذج ثلاثة لاربعة مؤلفين ، يلخصون الى حد كبير احدى النظرات الشائعة حول علاقة اليهودية بالصهيونية من حيث هما شيء واحد . وبالتالي فان الصهيونية ظاهرة قديمة قدم اليهودية وتجد اساسها في التوراة .

اعتقد ان هناك مسألتين مختلفتين يجب عدم الخلط بينهما . الاولى : نشأة الحركة الصهيونية والثانية الاساس الديني اليهودي للايديولوجيا الصهيونية . في معالجة هاتين المسألتين قد يتفق بعض المفكرين من العرب والصهيونيين حول قدم الحركة الصهيونية الاول بقدم استطالة للصراع العربي — الصهيوني . تمت عبر التاريخ . والثاني يريد ان يستعين بالتاريخ كي يبرز ظهور الصهيونية في وقت متأخر — القرن التاسع عشر .

الاول يبحث في التوراة عن علة قيام « اسرائيل » ليدحض التوراة . الثاني يستند الى التوراة لتقرير حق اليهود في فلسطين ويدحض حق الفلسطيني في الجوهر . نحن امام خطابين متشابهين ومختلفي النية .

اجل، يقدم الصهيوني شمويل ايتنغر صورة نموذجية تقارب الى حد كبير الصورة التي قدمت آنفاً من قبل العربي الذي يؤكد نزوع اليهودي القديم الى ارض فلسطين، التي ليست ارضه. ففي دراسته « الشعب اليهودي وارض اسرائيل » يرسم شمويل ايتنغر اللوحة التالية :

«الصلوات بين الشعب اليهودي وارض « اسرائيل » تُكوّن واحدة من اغرب الظواهر في تاريخه الطويل، وهي ظاهرة قد لا تقع على نظير لها في تاريخ اي شعب من الشعوب. هذا الشعب — ويقصد اليهود — شأنه شأن كل شعب محمل بالتاريخ، تضعيع بداياته بين الاساطير الملحمية والمعطيات المتناقضة، ولكن حساسيته التاريخية الحادة ومحافظته الامينة على تراث الاقدمين والاهمية المعطاة لاحداث ما قبيل الخروج من مصر في اخراج شخصيته القومية الى حيز الواقع اتاحت كلها لشعب اسرائيل ان يكون منذ عصر بعيد، وجداناً قومياً عميقاً. هذا الوجدان عبرت عنه التوراة قبل سواها فكان له على طبع الشعب اثر حاسم خلال سائر القرون (١٣)

هذا الوجدان القومي سيراقد اليهود على مر التاريخ وتظل فلسطين — كما يقول ايتنغر — هي الارض الموعودة . ويمسي وجود شعب اسرائيل في ارضه متعلقاً بنقاوة دينه وكمال خلقه . تظهر قوة هذه الافكار عند « الاحتلال » البابلي لاورشليم وهدمهم الهيكل عام ٥٨٦ ق . م وهي الكارثة الاولى (١٤) .
تجيء الكارثة الثانية بتدمير الهيكل الثاني على ايدي الرومان عام ٧٠ فتزيد من شوق اليهود الى الخلاص، في فلسطين وفي المنفى (١٥) .

ثم كان الفتح العربي لفلسطين في القرن الثامن فسهل العلاقات بينها وبين يهود المنفى وحافظت البلاد على مكانها الممتاز في الوجدان القومي ، وفتحها لا يشكل حقاً فيها . وكان الوعاظ والمتصوفة يفسرون خرابها على انه اشارة من امارات الخلاص المقبل : فذلك التراب لا يؤتي ثماره الا للملاكة الشرعيين (١٦) .

الى ذلك، كان ثمة تسليم ضمني بان اقامة اليهود في الخارج وان طالأت أجيالاً ليست في عين الشرع سوى منفي مؤقت، اكانوا فيه مضطهدين او محترمين (١٧) .

ثم يتابع ايتنغر رسم اللوحة المتخيلة قائلاً : « اما التعبير عن الحنين المضطرم الى الوطن الضائع واما البرهان الثابت على استمرار الضيق بالمنفى، فنقرأهما في الحركات الخلاصية، إذ أن يقظة هذه الحركات ترافق وضع الأقلية اليهودية ودينها في العصور الوسطى » (١٨)

وأما الاضطهاد الذي مورس على اليهود، في أوروبا فكان ينظر إليه اليهود بوصفه «آلام ولادة الخلاص». فكل تغير في الوضع السياسي القائم كان يمكن ان يعني بداية النداء. لذا، أيقظت الحروب الصليبية والغزو المغولي وفتح القسطنطينية أملاً مداره أرض اسرائيل (١٩).

ثم جاءت ضربة بالغة القسوة حلت باليهود، هي طرد اليهود من اسبانية (١٤٩٢) فاقتلعت أكبر الجاليات اليهودية في أوروبا من جذورها وأوسععتها تحطيماً لكنها أدت إلى نهضة روحية، فتركز العديد من اليهود في فلسطين أوحى بأن مغزاه هو اقتراب الخلاص، لذا قامت محاولة لإعطائه وضع الأمة الديني طابع القداسة بالعودة إلى الرسم الكهنوتي في الأرض المقدسة (٢٠).

وخلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، جرى رد الأمل في خلاص اسرائيل في العودة نحو صهيون إلى شخص مسيح روحاني، فكان أن استجاب معظم اليهود إلى نداء ملك مخلص جديد هو شبتاي زفي، وإذا كان من دلالة لاتساع الاستجابة لهذا المخلص، فهي قوة الأمل في العودة إلى بلاد اسرائيل (٢١).

وفي القرن الثامن عشر فقد انتشرت بين أتباع البروتستانتية اعتقاد عودة «اسرائيل» إلى المسيحية، وربط الكثيرون بين هذا الاعتقاد وبين تجديد الملكية اليهودية لاسرائيل، وفي الوقت نفسه، فقد هاجم أتباع التنوير الأديان وظهرت نزعة الاندماج لدى اليهود، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا أقلية في أوروبا الغربية والوسطى، ولم يكن لهم وجود في أوروبا الشرقية ولا في الشرق الأوسط ولا في أفريقيا الشمالية — كما يقول اتينغر — ورغم ان الاندماج وقطع الصلات بأرض «اسرائيل» كانت تؤيده السلطات والاتجاه الليبرالي، إلا أن فشلها بدا ظاهراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر طلب اليهود، في صيغة حديثة وعلى أساس تجربة تاريخية جديدة، عودتهم إلى أرض اسرائيل (٢٢).

وهكذا ظهرت الصهيونية على يد عدد من المثقفين الأوروبيين. هذه الصورة التي يرسمها شمويل اتينغر، استاذ التاريخ اليهودي الحديث في الجامعة العربية بالقدس، ونجدها عند أكثر من كاتب صهيوني، تريد ان تدلل على أن فكرة الخلاص بدأت بالظهور عند اليهود من «الكارثة الأولى» واستمرت حتى هذا التاريخ، كفكرة تدفع اليهود دائماً لتوجهه روحياً، او جسدياً شطر فلسطين، بوصفها — كما يعتقدون — وطنهم الأصلي، وكوسيلة لنفي النفي، اي الخلاص، هذه الصورة الخيالية، تعززها الوصايا المندرجة في التوراة.

هذا المعنى، فاليهودية مستمرة أنفأ عن التاريخ، وليس بفضل التاريخ، ذلك أن تاريخ المتخيل لليهود على صراع بين الفكرة الصهيونية والسيرورة الواقعية، أو أن شئت قل للتاريخ الواقعي ليس له من هم سوى انتاج وتذكير اليهود «بوطنهم الأصلي»، على الرغم من أن التاريخ يجري نحو ادماجهم، أو هكذا يريد، وبالتالي يقوم الصراع بين إرادتين: إرادة الفكرة الصهيونية — الخلاص، التحرر من النفي، وإرادة التاريخ، وبالنتيجة تنتصر الفكرة الصهيونية التي تعاند إرادة التاريخ، أما لماذا يستمر الشعور بالنفي والرغبة في الخلاص عن طريق العودة إلى فلسطين؟ يجيب الصهيوني على شاكلة اتينغر، لأن التوراة — كتاب اليهود — يتضمن ذلك.

هنا يأتي بعض المفكرين العرب ليقولوا نعم إن أساس وعي اليهودي قائم في التوراة، لكن الفرق بين الاثنين هو أن الصهيوني يتعامل مع النص التوراتي كحقيقة مطلقة، والعربي يتعامل معه كتزييف لحقيقة التاريخ وتاريخ فلسطين وتاريخ اليهود أيضاً، وبما أن الفكرة الصهيونية قائمة في التوراة أصلاً، فلا بد من نقد التوراة. إذاً، في خطوة أولى يتم عرض الصهيونية وأخلاقيها على أساس التوراة وفي خطوة ثانية يشرع في نقد التوراة.

لنقرأ مثلاً ما يقوله الدكتور رشاد عبد الله الشامي: «لم يرث اليهود كتاب العهد القديم فقط، بل ورثوا معه تاريخاً طويلاً من اللا شعور والتعاليم...» ويضيف «وكتابات العهد القديم زاخرة بالأقوال التي تدل على تلك الحالات» (٢٣).

والدونية — دونية اليهود — يعبر عنها سفر الخروج بقوله: «فقال الرب، لقد رأيت مذلة شعبي في مصر، وسمعت صراخهم وعلمت أوجاعهم فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين... إلخ». ثم يورد الدكتور الشامي نصوصاً متعددة أخرى وقصص متنوعة كلها تدل على أن هذه القصص الدينية قد خلفت لدى اليهود إحساساً بالمذلة الدائمة، «عوضوه بعد ذلك بسلوك عدواني ووحشي تشهد على ممارسته مدوناتهم التي سجلت قصة غزو أرض كنعان من منظورهم الديني» (٢٤).

ويتابع الدكتور الشامي قائلاً: «وقد رأى اليهود أنفسهم في مجتمعاتهم المتفرقة في أنحاء العالم، التي كثيراً ما تعرضت لكرهية الأمم الأخرى، وقد عاشوا، منذ السبي البابلي في القرن السادس ق.م. والتشريد الروماني منذ القرن الأول الميلادي، يصارعون عوامل الفناء، ويتغلبون بتضامنهم الاجتماعي والديني على كل مشاريع الإبادة التي خططت من أجلهم، فكان من الطبيعي أن يأخذهم الزهو والغرور بهذا البقاء الدائم». (٢٥)

في حقيقة الأمر، إن جملة الأفكار التي يوردها الشامي ليست متناقضة مع معظم أفكار اتينغر، ولكن النتيجة التي يريد أن يصل إليها هي أن أساس العنصرية يقوم في النص الديني المتوارث من قبل اليهود.

إذا كانت التوراة حاوية على الصهيونية والعنصرية وتعلن بدء هذه الحركة فما هو الموقف من التوراة، هذا الذي يرى فيه مثلاً جورجى كنعان سبيلاً لفهم العنصرية اليهودية: «وفي محاولتي تقصي جذور العنصرية اليهودية والقيام بعرض تاريخي لها قاذني البحث في طبيعة هذه العنصرية، ودلالاتها، إلى الرجوع إلى مصادرها وأصولها القديمة... وإذا كانت معرفة أي شيء تبدأ بمعرفة أصوله، فإن العودة إلى التاريخ اليهودي القديم ضرورية لفهم شخصيته والتعرف على طبائعه المكتسبة، لأن فكر اليهود الديني والتاريخي متأصل في نفوسهم، والوجود اليهودي — الصهيوني يرتبط فكرياً وسياسياً واجتماعياً وحضارياً بما يسمى بالتراث ايهودي، فسيلنا إلى فهم العنصرية اليهودية سيكون بالرجوع إلى التراث الذي خلفوه وأول مصادر هذا التراث هو التوراة، العهد القديم» (٢٦)

والتوراة، كما يرى مؤلف العنصرية اليهودية، كتاب أملاه الكهنة في السبي البابلي، أو كما يقول: «وعندما بدأ اليهود بتدوين التوراة زمن موسى أو بعده، أو عندما صاغوها من جديد في السبي البابلي استشهدوا بتحقيق جملة أغراض أولها: تمجيد تاريخهم، وذلك بإرجاع أصلهم إلى أقدم شخصية قديمة عرفتها شعوب المنطقة — ابراهيم الخليل — وثانيها: إضفاء صفة القداسة على عنصرهم كونهم سلالة ابراهيم الذين اختارهم الرب ليكون راعياً لهم من دون سائر البشر، يبيد الشعوب من أمام وجههم.. فوضعوا في توراتهم — كتابهم المقدس — بذور العنصرية والتعصب والانعزالية» (٢٧).

ويرى السيد ندره اليازجي: أنه يستحيل علينا أن نفهم التوراة، تاريخياً، إلا فسخاً للحقيقة الله وتحويله إلى إله قومي، هو يهوه، وإذا كان جورجى كنعان يرى أن التوراة قد كتبت من قبل كهان اليهود، فإن التوراة بكاملها كما يرى السيد ندره اليازجي «خاصة أسفار موسى الخمسة إنما تقوم على الآراء التي سادت فيما بين النهرين ومصر وبلاد ميديا فاليهود لم يبدعوا شيئاً فظلوا في عالم الشريعة ولم يدخلوا عالم الروح» (٢٨).

ويؤكد ندره تلك الفكرة — فكرة أن التوراة مقتبسة من الكتب الأخرى «فلقد أخذ داود مزاميره من كتابات الكنعانيين وكتابات رأس شمرا، وأخذ سليمان أقواله من الكنعانيين الذين خانهم ومن المصريين أيضاً، أما الكتابات الأخرى في التوراة فقد أخذت من كتابات شرقية تعتبر زراد اشتية ومانوية في أساسها» (٢٩).

ويخلص ندره اليازجي إلى القول: «لا نتعلم درساً أخلاقياً من التوراة، فهي مدرسة للفساد والشر، التوراة مدرسة سياسية لليهود وتوجيه لهم في كل أمر» (٣٠) «وبما أن الصهيونية قائمة في اليهودية وبما أن اليهودية قائمة في التوراة، فالصهيونية قائمة في تدبير يهوه لقضية اليهود، لحياتهم، وفي تخطيط مسبق لأموالهم، الصهيونية قائمة في عرفية وفي صلب يهودية التوراة، لاصهيونية بدون يهودية ولا يهودية بدون توراة» (٣١).

القسم الثاني

-٢-

لسنا بصدد دراسة تاريخ اليهودية أو تناول التوراة من زاوية تاريخية نقدية — في أي عصر كتبت، وما التطورات والاضافات التي تعرضت إليها على مر الزمن والطابع الأسطوري والمنايع أو المصادر الشرقية المتعددة — فكل ذلك يمكن أن يكون موضوعاً للنقد التاريخي كأي وثيقة تاريخية قديمة، إنما نحن بصدد مسألة محددة تصاغ في السؤال التالي: إلى أي حد يمكن قبول الرأي القائل بقديم الصهيونية على أساس قدم التوراة، أو بكلمة أخرى إلى أي حد يمكن الركون إلى اعتبار أن التوراة هي الصهيونية بالذات؟

إننا يجب ان نميز بين مسألتين — كما أشرنا سابقاً — مختلفتين:

الأولى: نشأة الصهيونية كظاهرة تاريخية حديثة وأساس الصهيونية الايديولوجي.

وثانياً: إن خرافة قدم الصهيونية التي يشيعها عدد من المؤدجين الصهاينة ليست أكثر من سلاح موجه لحمل جميع اليهود للانيان بالحركة الصهيونية والاندراج في سياستها قبل كل شيء، وبعث الحمية الدينية في صفوف اليهود، ومن أشنع الأخطاء أن يردد بعض المفكرين العرب هذه الخرافة — عن حسن نية — بكلمة واحدة، ان البحث عن مبرر ايديولوجي للحركة الصهيونية ماكان يمكن إلا أن يعود إلى الماضي الميت من أجل بعثه، وهم على بينة إلى حد يمكن أن تلعب الفكرة الدينية بعواطف البشر، وما الدور الذي تقوم فيه وسط جماعات اليهود في ظروف أزمت متعددة.

إذاً، وقبل كل شيء، إن قدم الصهيونية حيث يبدأ تاريخها من ابراهيم والكتاب المقدس مستمراً إلى القرن التاسع عشر فكرة صهيونية بالأساس، كما رأينا مثلاً عند اتينغر، وهناك امثلة كثيرة على المحاولات التي أرادت ان تجعل من الفكرة الصهيونية تاريخاً موصولاً منذ أربعة آلاف عام وحتى الآن، وهذه الخرافة هي التي يجب ان تكون موضوعاً للنقد قبل كل شيء. لقد أشار يوري ايفانوف الى هذه النقطة حين قال: «من المهم جداً كشف الأسباب الحقيقية لاختراع ونشر الخرافة حول قدم الصهيونية، ومن الجلي أن تحتفي وراء ادعاءات الصهاينة الساذجة، ظروف خطيرة جداً». (٣٢)

في منتصف القرن التاسع عشر، كتب الحاخام يهودا التالي يقول: «نحن كشعب يليق بنا أن نلقب باسرائيل، فقط إذا كنا في أرض اسرائيل» ويضيف: «أمنيتنا الكبرى دون شك هي لم شمل منفينا من أطراف العالم الأربعة كي يصيروا كتلة واحدة. نحن اليوم واحسرتاه، مبثرون ومنقسمون لأن كل جالية يهودية تتكلم لغة تختلف عن الأخرى ولكل منها عادات مختلفة. هذه الانقسامات عائق للخلاص» (٣٣).

ترى ماالذي سيوحد اليهود كلهم المنتشرون في أطراف الأرض الأربعة والذين يتكلمون لغات مختلفة ولهم عادات بعدد عادات الشعوب التي يقطنون بينها؟

من الطبيعي أن يبحث الصهيوني عن ايديولوجيا توحد جميع اليهود وهو لأنه لا يجد ما يوحد اليهود في الواقع فخفف ليوحدهم عن طريق دينهم، ودينهم تحول إلى كتاب ووصايا وتاريخ خاص.

إذا فالعودة إلى التوراة تحقق لهم عنصراً مقاوماً لكل عوامل الاندماج لاسيما أن عددا كبيرا من مثقفي اليهود كانوا تنويريين اندماجين بالأساس، بل إن أغلب الذين بدأوا تنويريين قد نكصوا نحو اليهودية مرة أخرى ونظروا لوحدة اليهود — المعذنين في الأرض — لأنهم يهود. ولأدل على ذلك من أن أسماء كثيرة من دعاة الصهيونية لاحقاً بدأوا حياتهم علمانيين اندماجين كما قلنا، كموسى هيس وبيريتز سمولنسكين وموشيه لايب ليلينبلوم وهرتزل وماكس نوردو وآخرين. كان لابد من بعث جميع الأساطير لصياغة المفاهيم الايديولوجية للصهيونية، كالمنفى والخلاص والشعب المختار والعداء للسامية، وهكذا تحولت اليهودية من مجرد دين إلى أساس قومي وتحولت عناصرها إلى عناصر موحدة، وتحول التوراة إلى منبع تاريخي.

والخطوة الأولى، إذا، هي مواجهة معارضة بعض اليهود أو الأفكار التي انتشرت بين اليهود وهي أفكار معارضة لما يسمى بعودة «الدولة اليهودية».

في وقت مبكر كتب بيريتز سمولنسكين يقول: «ليكن معلوماً بأنه يتوجب علينا إعلان الحرب ليس ضد حركة التنوير على العموم لأنها شيء حسن... إنما ضد نوع معين من التنوير، ولنعرف الآن هذه الحركة من التنوير كي لا نخلطها مع غيرها وذلك بذكر تعاليمها» (٣٤).

ثم يعدد سمولنسكين عناصر التنوير اليهودي الذي يقف ضده ويحملها بما يلي: «تبني طرق الأميين، تبديل كل شيء ورثه اليهود من الأجداد، الذوبان في المجتمعات الأخرى، التخلي عن أمل العودة، محو اللغة العبرية، إرضاء الأمم الأخرى» (٣٥).

ولأن هذا التنوير يعني الذوبان في المجتمع والذوبان في المجتمع يعني اعتناق دين آخر — كما يرى — فلا بد من العودة إذا إلى وصايا التنوير، بل إلى وصايا التوراة.

إن الصهيونية في إبرازها أهمية ودور التوراة في ايديولوجيتها، إنما أرادت أن تجد جواباً عن سؤال «الهوية القومية»، وهي ظاهرة شاذة في العصر الحديث — ظاهرة — ان يبحث جماعة من الناس عن هويتهم في كتاب مضى على تأليفه آلاف السنين، فاليهودي الصهيوني وجد نفسه في حالة لا تسمح له بالحديث عن شعب أو أمة يهودية استناداً إلى العناصر التي تكون الأمة أو الشعب، بل قل إن الفكر الاجتماعي — السياسي الذي حدد عناصر تكون الشعب أو الأمة يدحض وجود أمة يهودية.

ففي غياب العنصر الجغرافي — الأرض — الذي يجمع اليهود — وهم متوزعون على بلدان كثيرة — صاغوا علاقة دينية بين اليهود وبين أرض موعودة، أي في ظل غياب الأرض الواقعية بحثوا عن أرض وهمية، وهذه الأرض الوهمية إنما وجدت على لسان التوراة، وليس مصادفة أن عبر أحد الصهيونيين عن هذه الواقعة بما يلي: «الصلات بين الشعب اليهودي وأرض اسرائيل تكون واحدة من أغرب الظواهر في تاريخه الطويل، وهي ظاهرة قد لانقع على نظير لها في تاريخ أي شعب من الشعوب» (٣٦).

وشيمون بيرس يؤكد فريدة طابع دولة اسرائيل، حيث هذه الدولة الوحيدة في العالم ذات الديانة الواحدة «وهي الدولة الوحيدة التي تمتاز لغتها الحية بكونها لغة مقدسة، هي اللغة العبرية، كما أنها الدولة الوحيدة التي يبعث نشوؤها استقلالاً سياسياً وقومياً كان موجوداً في المنطقة الجغرافية منذ حوالي الألفي عام... ولاشك في صحة ما أشار إليه «هينه (*)» من أن «التوراة هي الوطن الأم الثالثة للشعب اليهودي» وهناك وعي جديد يفرض نفسه، هو ضرورة الوصول إلى توازن أفضل بين التاريخ والجغرافيا» (٣٧).

إذا إن الانفصال القائم بين التاريخ وبين الأرض — وهو انفصال واقعي — لا يزول إلا بإقامة الترابط بين التاريخ وبين الأرض، الموجود في التوراة، في هذا لا يختلف «العلماني» الصهيوني عن الصهيوني «المتدين» ذلك أن كليهما يحتاج إلى التوراة ليقدم تبريراً ما — توراتي — لعلاقة بين اليهود والأرض، لتستكمل عملية إيجاد حجة الأمة التي لانقوم إلا على أرض محددة.

وليس هذا فحسب، وإنما التوراة، بما تنطوي عليه من خرافة النسب اليهودي تقدم أيضاً عنصراً جديداً يوحد مالا يوحد، بمعنى أن توزع اليهود — وهو توزع قديم وأسبابه كثيرة — على دول العالم لا يمكن أن يكون متحداً مهما كانت درجة العلاقات القائمة بين يهود العالم، ولهذا فالبحث عن أصول سلالية لليهود استمرت حتى هذه اللحظة — وهو امر تدحضه ولاشك حتى الصفات الأثنية لليهود — لا يمكن أن يدلل عليه عن طريق علم السلالات أو بالأنثولوجيا أو الأنتوغرافيا، فلا يبقى إذا إلا اسطورة التسلسل السلالي الموجودة في التوراة، وإشاعتها بين اليهود كي يتكون وعي بالإنتماء، او الهوية القومية المفقودة.

فالصهيوني وهو يستعيد اسطورة تكونه السلالي كما ورد في التوراة يصوغ على نحو فج فريدة هذا «الشعب» اليهودي وفريدة تكونه التاريخي أيضاً. وها هو احد الصهيونيين المعاصرين يرسم اللوحة السلالية التالية للتدليل على: اولاً، ان اليهود هم صفوة الشعوب. ثانياً، ان هذه الصفوة ترتد الى التاريخ طالما التوراة تختصر تاريخ البشرية والعالم وليس اليهود فحسب.

« عنصر شعب اسرائيل افخر العناصر لانه تكون عن طريق انتقاء الافضل في كل جيل ، فآدم الاول الذي خلقه الرب بنفسه كان كاملاً في غاية الكمال ، وقد ولد لآدم ابناء كثيرون كان احسنهم شات وقد وقع عليه الخيار كي يستمر عنصر آدم الاول ، ويتكون منه شعب اسرائيل . وكان لشات ابناء كثيرون احسنهم انوش ، الذي اختير ليستمر العنصر ، وهكذا دواليك ... وقد كان لنوح ثلاثة ابناء واحسنهم سام ، وكان احسن ابناء سام ارفكشاد ، واحسن ابناء ارفكشاد كان سيلح ، وهكذا دواليك ... وقد كان لابراهيم ابناء وهما اسحق واسماعيل . وقد وقع الخيار على اسحق ، ابناء اسحق هم يعقوب وعيسو ، وكان يعقوب هو الافضل . وقد اختير ليواصل العنصر . وكان ابناء يعقوب كلهم اخيار ولم يكن من داع لانتخاب واحد منهم » (٣٨) . وهذا يعني ان ابناء يعقوب — وهم اليهود — نسلهم جميعهم اخيار ومختارون وينتمون الى أصل واحد متسلل حافظ على نقائه السلاي . اي كتاب يمكن له ان يساعد على تكوين هذا التصور الساذج للانتاء اليهودي الى سلالة نقية غير التوراة ؟!

وهكذا نرى ان التوراة هو الحقل الايديولوجي الذي قطعت منه الحركة الصهيونية اهم اخشابها لتبني اعمدها الاساسية ، الحين الى الارض الموعودة ، الخلاص النقاء العرقي ، الامة اليهودية . لم يستطع العربي ان يتجاهل هذا التصور الاسطوري لتاريخ اليهود وان كان الكثير ، كما سنرى ، قد عالج الصهيونية من حيث هي ظاهرة اوربية حديثة ذلك ان مواجهة الحق عن طريق اعادة رسم تاريخ آخر لليهود لايعطي لليهود مثل هذا الحق . واذا كانت المسألة كلها تكمن في حق العرب الفلسطينيين في فلسطين ، فان الايديولوجيا الصهيونية قد فرضت نوعاً من الجدل بين حقين: كلامهما يستند الى التاريخ . صحيح ان التاريخ لايقدم لليهود اي مستند اطلاقاً للحديث عن حق تاريخي ، لكن مجرد ان حوّل البعض من المفكرين العرب المسألة الى صراع بين حقين — وهم يدحضون حق اليهود المزعوم في فلسطين — قد نقلوا القضية الى مستوى اخر من المعالجة وكأن المسألة هنا مسألة من يملك حججاً تاريخية اقوى .

تأسيساً على ما سبق ذكره خفّ المفكرون العرب — حين تناولوا تاريخ اليهود وهم بصدد دحض ادعاءات الصهيونية التاريخية — لرسم صور اخرى لهذا التاريخ ، على الرغم من اتفاقهم جميعاً بان ليس لليهود في فلسطين اي حق تاريخي .

سأتناول نماذج معينة تبرز تنوع تناول تاريخ اليهود ، دون ان يعنى ذلك انها تستنفذ كل ما كتب حول الموضوع . فهمنا امر آخر مختلف من النماذج التي يقدمها بعض الباحثين العرب لتاريخ اليهود، عبر الحديث عن تاريخ فلسطين، ما كتبه السيد ابراهيم المسلم في كتابه « لمحات من القضية الفلسطينية ودور الملك عبد العزيز آل سعود ». يبدأ تاريخ فلسطين منذ ٣٥٠٠ ق.م ، حين استوطنتها اول قبيلة وهي عربية سميت بالكنعانيين . وفي « زمن النبي ابراهيم عليه السلام كان الكلدانيون يحكمون في العراق والعموريون في الشام والكنعانيون في فلسطين والفينيقيون في صور ، وكانوا عرباً . وعندما جهر النبي ابراهيم عليه السلام بدعوته انكره قومه ... وكادوا له » (٣٩) . وكان ابراهيم يقيم في مدينة أور الكلدانية . « وخرج ابراهيم فاراً بدينه يسعى في الارض ليظهر هذا الدين وحطت القافلة رحلها في مدينة حاران واجتمع اليه الناس وامتلأت خيامه بالقادمين من التجار والمرافقين والمستضعفين من مدينة حاران وزادت رغبتهم في الدخول بدين ابراهيم . وبدأ سكان حاران يجهرون بهذه الدعوة ، الامر الذي اغضب الدولة . ترك ابراهيم ارض حاران وسارت القافلة باتجاه نهر الفرات ، وتأهبوا للعبور » (٤٠) *.

« وتم العبور باذن الله — وسجل المؤرخون هذا ما بين عام ١٧٥٠ — ١٧٠٠ ق.م » ثم دخل حلب ومنها رحل الى دمشق ونشر دعوته . وانتصر على الكهنة وعباد الاوثان . ثم رحل الى فلسطين لنشر دعوته لكن الكنعانيين رفضوها « واستعانوا بسنان بن الاش بن عبيد من ابناء سام وهو ملك مصر آنذاك » فجهاز ملك مصر جيشاً وهزم ابراهيم واسرت زوجته سارة وحملت مع « السبايا الى مصر » . ثم انطلق ابراهيم الى مصر « لفك اسر زوجته واقتدائها بالمال » اعاد ملك مصر لابراهيم زوجته سارة واهداه « هاجر ام المؤمنين » (٤١) وعاد ابراهيم الى بيت ايل ثم بدأ الترحال مرة اخرى وحط بالخليل . ثم تزوج ابراهيم من هاجر وولدت اسماعيل . واوحى الله الى ابراهيم بان يبني بيت « الله ، فخرج هو وزوجته هاجر وابنه اسماعيل وحط في واد غير ذي زرع . وعاد ابراهيم الى الخليل وقد اكتمل اولاد اسماعيل اثني عشر وأولاد ابراهيم من سارة باثني عشر آخرين ومات ابراهيم ودفن في الخليل » (٤٢) .

تزعّم ابراهيم القبائل العربية في الجزيرة . وانتشرت ذرية اسماعيل في الشام والحجاز . « وفي عهد النبي سليمان عليه السلام توطدت بينه وبين قبائل اسماعيل اواصر الصداقة .

* كل ما سيرد حول هذا النموذج هو تلخيص لما كتبه المؤلف، وجميع الجمل التي بين قوسين هي نقل حرفي عن المؤلف

أما بنو اسرائيل ، فيرى المؤلف انه بعد وفاة « سيدنا ابراهيم عليه السلام وفناء قوم لوط ثم وفاة اسحق ، عاش يعقوب — عليه السلام — وابناؤه بين الكنعانيين واخذوا عنهم العبرية ، وبعد حدوث الرؤيا ليعوسف عاش يوسف في مصر وخرج « سيدنا يعقوب للقاء يوسف وابنه بينامين واستوطنوا مصر . وبخروج يعقوب انتهى وجود ابناء اسرائيل في ارض كنعان . وبعد حرب فرعون مع العماليق الذي ايدهم اليهود وانتصاره عليهم ، سام فرعون بني اسرائيل الهوان » (٤٣)

« وظهر النبي موسى — عليه السلام — يجهز بدعوة ابراهيم عليه السلام » لكن بني اسرائيل بدأوا يكيدون له لدى فرعون . وخرج موسى هارباً بدينه واستقر في ارض مدين وتزوج احدى بنات النبي شعيب عليه السلام ، وعاد موسى الى مصر ليتدبر خروج بني اسرائيل وخلصهم من الاسر فتاهوا اربعين عاماً في الصحراء . ثم « قاد الشعب اليهودي يوشع بن نون من أسباط موسى عام ١٢٢٠ ق . م » وعبر بهم نهر الاردن واحتل هذا القائد اريحا وقتل اهلها ودام حكمه سبعة وعشرون عاماً . وبدأ تاريخ اليهود من نسل يهوذا . « وقد بعث الله فيهم نبياً اسمه شمويل يبلغ رسالات ربه ، وينهاهم عن عبادة الاوثان » . ثم استجاب الله لنداء شمويل وبعث في اليهود ملكاً اسمه طالوت ، وفي الحرب بين طالوت وجالوت قائد الكنعانيين « لم يجرؤ طالوت على محاربة جالوت وجاء داود وتقدم صفوف المقاتلين وداود بايانه بالله وعزيمته الصادقة تقدم وقتل داود جالوت ، وانتهى هذا الفصل من ضعف وهوان بني اسرائيل وهُزِمَ الكنعانيون فان ايمان داود بنصر الله هو الذي دفعه لقتال هذا الجبار » (٤٤) .

لكن طالوت بدأ يتآمر على داود ، وخرج داود طريداً وعاد الكنعانيون وهزموا بني اسرائيل . وقتل طالوت ونودي بداود ملكاً وبدأ التاريخ يسجل حكم بني اسرائيل في عام ١٠١٧ ق . م ثم جاء سليمان وحج الى بيت الله الحرام ، واتم بناء الهيكل . وانتهى حكم سليمان عام ٩٣٧ ق . م بعد حكم دام اربعين عاماً . وبعد موته قامت الفتن بين اليهود وقامت الحروب بينهم وقسموا مملكة اسرائيل الى دولتين : « مملكة اسرائيل وعاصمتها السامرة . ومملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم » (٤٥) .

ثم « سلب الله عليهم بظلمهم » ... بعل « الثالث وغزا مملكة اسرائيل ويهوذا ودمر مملكة اسرائيل ولولا تدخل بني اسماعيل لاستطاع ان يدمر الدولة الثانية — مملكة يهوذا . واسترد الكنعانيون ارضهم واقاموا حكمهم وحضارتهم على ما تبقى من بلادهم . وحارب ابناء اسماعيل الملك الاشوري ونجحوا في دخول بابل واکرمهم البابليون . واعادوا سبايا بني اسرائيل . ولكن مملكة يهوذا حاولت غزو ابناء عمومتهم ... ولكنهم لم ينجحوا . ولما رأى يختصر ملك بابل ما وقع من اليهود

لأبناء عمومتهم جهز جيشاً وقضى على مملكة يهوذا. وتمّ له ذلك عام ٥٨٦ ق.م. وأحرق الهيكل ونفى اليهود. وهناك في المنفى « اشتد التعصب بين الاسرى اليهود وكتبوا التوراة بأيديهم ووصفوا ابراهيم بالكذب ولم يذكروا موسى في توراتهم وزعموا ان سليمان مات كافراً.... الخ وتوقف تاريخ اليهود.... وانتهى دورهم في التاريخ » (٤٦).

انه لمن الدلالة بمكان ان «يؤرخ» عربي معاصر لليهود بهذه الطريقة مستنداً في ذلك على الطبري. فالقارئ لتاريخ اليهود عند الطبري في كتابه « تاريخ الامم والملوك » يجد ان الرواية المعاصرة هي تقريباً متفقة مع رواية هذا المسلم الذي كتب كتابه ما بين ٢٩٠ — ٣٠٣ للهجرة. وهي رواية اسلامية ، ليس فيها اي تعصب ديني او قومي . بل على العكس من ذلك فان المسلم يجد في اغلب الملوك اليهود المتعاقبين انبياء الله مستنداً الى رواية التوراة وما جاء في القرآن الكريم بشأنهم . وانقطاع تاريخ اليهود ، حادث يدحض الحق التاريخي الذي تدعيه الصهيونية. وواقعه انقطاع تاريخ اليهود عن فلسطين واقعة لا ينكرها احد حتى الصهيونيين انفسهم . ولكن العربي يرى ان هذا الانقطاع التاريخي عامل مهم جداً في تأكيد تاريخ جديد لفلسطين — هو التاريخ العربي — الاسلامي والذي يبدأ من فتح القدس حتى الان .

ولكن من اللافت للنظر ، ان المسلم وهو «يؤرخ» لليهود . او يروي الاحداث استناداً الى ماورد في القرآن الكريم يميز نوعين من الصراع وهو صراع ديني داخل اليهود انفسهم وصراع بين اليهود وغيرهم . انه صراع بين ابراهيم . ومن سار على ملته موسى وشمويل وداود وبين من انكروا دعوة ابراهيم ان الله يؤيد بنصره ملة ابراهيم على الاعداء . ولهذا نجد ان الكاتب الآنف الذكر حين يذكر الحرب بين الكنعانيين واليهود لا يرى غضاضة من تأييد اليهود ضد الكنعانيين . وهم سكان فلسطين الاصليين . فالله ايد داود ضد جالوت ، وتأييد الله داود انتصر على جالوت الكنعاني (الكافر) . ثم ان الله يسلط على اليهود ، مثلما فعل بسبب ظلمتهم ويدمر مملكة « اسرائيل » ولكن بني اسماعيل يتدخلون ويدافعون عن مملكة يهوذا ، ولكن مملكة يهوذا حاولت غزو ابناء عمومتهم النبط ، وهم عرب وينتقم بختصر ويعاقب مملكة يهوذا ، ويأخذهم اسرى . وهناك يبدأ التاريخ الزائف لليهود . حيث يسكتون التوراة بأيديهم . تحرفين اياه بالطبع .

ان ابراهيم وموسى وداود هو جزء — من وجهة نظر المسلم — من تاريخ الايمان الذي يمتد حتى بعثة الرسول العربي صلعم والله يؤيد المؤمنين ، وإذا بغوا يسلط عليهم الاعداء .

واله اليهود — يهوه — هو الآخر بيده الهزيمة وبيده النصر ، لكن اليهودي يبقى على اتصال مباشر لا ينقطع مع يهوه من جهة نظر اليهودي ، فهو لم يتركه حتى هذه اللحظة والصهيوني ، يستند الى وعده بينما سيرورة الايمان تبدأ من ابراهيم وموسى وعيسى وتنتهي بالدعوة الاسلامية — لدى المسلم — يتوقف اليهودي عند ايمانه وبنفيه عن الآخرين .

طبعاً نحن لسنا امام تاريخ يمت الى علم المتفق عليه وانما امام رواية تخضع لحقائق دينية مسبقة وهذا احد اشكال تناول التاريخ اليهودي من قبل العرب .

من الكتب التاريخية المهمة التي اصبحت مرجعاً لعدد كبير من الدارسين والباحثين العرب ، كتاب الدكتور احمد سوسة ، (العرب واليهود في التاريخ) ، وهو من النوع الذي يستجيب لاصول البحث التاريخي ، مهما كان هناك من آراء مخالفة له ، ونحن اصلاً لانعدم اطلاقاً وجود اختلافات بين المؤرخين حول الظواهر التاريخية الماضية . والكتاب — بميله الى الدقة — يضع هدفاً مباشراً وهو تأكيد عروبة فلسطين منذ خمسة آلاف سنة وليدحض الحق التاريخي لليهود في فلسطين .

وهذا السفر الذي يقع في ثمان مئة وثلاث وسبعين صفحة يبدأ بدراسة تاريخ فلسطين منذ الهجرات الاولى اليها ، الهجرة الكنعانية ودراسة الشعوب التي سكنتها مروراً بدراسة التوراة والديانة اليهودية وانتهاءً بدراسة الحركة الصهيونية . لاجمال عرض كتاب بهذا الحجم الكبير ، غير ان زبدة هذا الكتاب تتحدد في اعادة النظر في ما اعتبر حقائق توراتية وتقديم تاريخ حقيقي لفلسطين قائمة على دراسة الوثائق التاريخية والمقارنة بين اللغات . فالمؤلف ينطلق من تحديد مصطلحات العبرانيين ، الاسرائيليين ، الموسويين ، اليهود ليدلل على انها ليست « اربع تسميات لمسمى واحد ، وانما لكل منها مدول خاص » (٤٧)

فالعبري مصطلح كان « يطلق في نحو الالف الثانية قبل الميلاد وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام وعلى غيرهم من الاقوام العربية في المنطقة ، حتى صارت كلمة عبري مرادفة لابن الصحراء او ابن البادية بوجه عام ولم يكن للاسرائيليين والموسويين واليهود اي وجود بعد . لذلك نعت ابراهيم الخليل بـ « العبراني » كما ورد في التوراة انما اريد به معنى العبريين » العبيرو » وهم القبائل البدوية العربية ، ومنها القبائل الآرامية التي ينتمي اليها ابراهيم الخليل نفسه » (٤٨) .

اما مصطلح اسرائيل « فالمقصود به يعقوب حفيد ابراهيم الخليل وابناؤه هم بنو اسرائيل... ودورهم محصور في منطقة « حاران » (حران حالياً) ، حيث وطنهم الاصلي الذي ولدوا ونشأوا فيه . اما فلسطين فهي ارض غربتهم ، وقد وجدوا في القرن السابع عشر قبل الميلاد . وهو نفس عهد ابراهيم الخليل ... وانتهى دور « اسرائيل » بعد ان هاجرت اسرة يعقوب الى مصر وانضمت الى يوسف كما يقول التوراة واندجت وذابت في البيئة المصرية » (٤٩).

اما الدور الموسوي فجاء بعد الدور الذي تداولت فيه تسمية اسرائيل بزهاء ستمئة عام . والموسويون هم من الجنود الفارين على ارجح الاحتمالات وكان دين هؤلاء ودين موسى هو التوحيد الذي دعا اليه اخناتون . وقد هرب موسى واتباعه الى ارض كنعان هرباً من اضطهاد الوثنيين ، واسم موسى مصري بحث « (٥٠) . واخيرا اليهود « وهي التسمية التي اطلقت على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد » (٥١).

ويخلص الدكتور احمد سوسة الى ان اليهود لم يتركوا اي كيان سياسي يهودي خاص بهم في تاريخ فلسطين القديم ولكنهم تركوا ديانة مقتبسة من التراث الكنعاني البابلي الآرامي ، وأن عهد ملوكهم هو عهد كنعاني ان كيانهم قائم على الدين والدين عرضة للتغيير على خلاف القومية بما هي عليه من ثبات . وبالتالي فان كيان اسرائيل كان قائماً على الاغصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته في فلسطين منذ خمسة آلاف عام . النتيجة ان ارض فلسطين هي ارض الشعب العربي » (٥٢).

ان سربقاء اليهودية واستمرارها طوال هذا الزمن هو انها دين ، وكما زالت الدولة الصليبية في الشرق وبقيت المسيحية ستزول اسرائيل بوضعها الشاذ الحالي » (٥٣)

النموذج الثالث الذي نقدمه في رصد تاريخ فلسطين هو كتاب الاستاذ يوسف اليوسف « تاريخ فلسطين عبر العصور » . يتتبع المؤلف الى نقطة جديرة بالاهتمام الا وهي ان « معظم ما كتب عن تاريخ فلسطين هذه الايام قد حتمته الظروف السائدة في القرن العشرين . وهكذا انصبت الابحاث بالدرجة الاولى على مناقشة التوراة وعلى دراسة التاريخ اثناء « العصور التوراتية ، مع ان تاريخ فلسطين او سواها ينبغي ان يدرس كاستجابة لنزعة العقل البشري الرامية الى معرفة الحقيقة في ذاتها ولذاتها ، وبغض النظر عن نتائجها السياسية ... » ويضيف : « ان تاريخ فلسطين اذا درس انطلاقاً من الرغبة في الحق فانه لن يكون الا في صالح الفلسطينيين من تلقاء ذاته او وفقاً لطبيعته الموضوعية » (٥٤).

اذ، ان مطلب الدقة والنزاهة والموضوعية لا يتناقض والحق الوطني، لاسيما ان وجود دولتين « اسرائيل » و « يهوذا » او عدم وجودهما في فلسطين، او تأسيسهما من قبل « العبرانيين » ليس من شأنه كما يقول يوسف اليوسف ان يكون اساساً منطقياً كافياً لقيام دولة يهودية في فلسطين (يقصد الان أ.ب.) وان انقطاع الوجود اليهودي في بلادنا طوال ثمانية عشر قرناً على وجه التقريب هو اساس الحجة التي تحرم اليهود من الحق في انشاء دولة لهم على اي شبر من تراب فلسطين » (٥٥).

النقطة التي يدحضها المؤرخون العرب اجمالاً هي هذه بالذات اي الى حد يسمح تاريخ فلسطين بتبرير الوجود الراهن للدولة اليهودية — الصهيونية في فلسطين . رأينا عند أحمد سوسة نفي الوجود اليهودي في فلسطين والنظر اليهم كغرباء، اي ان فلسطين في كل تاريخها الطويل لم تكن الا موطن غربة لليهود . وهذا بدوره نفي لدعاوى الصهيونية المعاصرة .

ما يميز كتاب « تاريخ فلسطين عبر العصور » هو الدراسة النقدية للتوراة ونفي ان تكون مرجعاً صالحاً لدراسة تاريخ فلسطين وتاريخ اليهود بالذات. فتحويل التوراة الى وثيقة، ثم القيام بعملية نقد لهذه الوثيقة ، نقد يستند الى جملة الاكتشافات الاثرية التي اصبحت في متناول الجميع ، وهي اكتشافات تسمح باعادة رسم صورة جديدة لتاريخ المنطقة، غير الصورة التي رسمها عدد كبير من الغربيين والعرب انطلاقاً من الاقرار بصحة ما جاء في التوراة .

من الأمثلة على ذلك، مايورده المؤلف من تناقضات التوراة، وهي فعلاً تناقضات لا تسمح لأي مؤرخ أوفى خطأ من الدقة والنزاهة والموضوعية والمخيلة التاريخية ان يقر بما جاء فيه من حوادث. مثال؛ إبادة بني اسرائيل لشعب مديان الذي جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر العدو، حيث تمت الإبادة في عصر موسى، ولكن الإصحاح السادس والإصحاح الثامن من سفر القضاة يتحدث عن حروب طويلة بين اسرائيل وشعب مديان بعد موت موسى ص ٦٣ .

يسأل مؤلف « تاريخ فلسطين عبر العصور » السؤال التالي: « اسرائيل عبرانية أم كنعانية؟ » (٥٦). يجيب المؤلف إنها، لاريب دولة كنعانية لجملة اسباب : فاسم اسرائيل هو كنعاني وهذا ما يجمع عليه كثير من المؤرخين، وهو المؤلف من كلمتين « اسر » و « ايل » وأيا كان معنى « اسر » فإن ايل هو الاله الأعلى عد الكنعانيين، وحقيقة وجود اقليمين في الكتلة الجبلية الواقعة إلى الجنوب من مرج بني عامر، احدهما يسمى اسرائيل وهو الشمالي، وثانيهما يدعى يهوذا وهو الجنوبي، لا يستخلصهما المرء من التوراة وحدها، بل من الوثائق الآشورية والبابلية قبل كل شيء » (٥٧).

وإن اسرائيل المذكورة في التوراة أو في الوثائق الآشورية: «لم تستطع جهود المنقبين جميعها ان تكشف فيها أي أثر غير كنعاني على الإطلاق مما لا يدع مجالاً للشك في أنها لم تكن إلا مجتمعاً كنعانياً» (٥٨).

إذا «حين أطلق الصهاينة اسم «اسرائيل» على دولتهم الراهنة، إنها سرقوا الاسم من الكنعانيين، أي أصحاب البلاد الشرعيين» (٦٠).

ثم يسأل يوسف سامي اليوسف سؤالاً آخر؛ هل كان يهوه كنعانياً هو الآخر؟ يجيب اليوسف قائلاً: «إن التنقيبات قد اكتشفت ثلاثة ألواح بابلية ترقى إلى القرن الثامن عشر ق.م وقد نقش اسم يهوه على كل منها، مما لا يدع مجالاً للريب في أن يهوه، أو الدائم، إله يعبد في الهلال الخصيب منذ زمن لاندرية» (٦١).

الأهم من ذلك ان يوسف اليوسف يرى، انه لا يمكن الثقة بما ترويه التوراة عن كل ما هو سابق للقرن التاسع ق.م. وهو يرى أنه «ليس لدينا أية وثيقة تاريخية تؤكد الوجود الفعلي لأي شخصية من الشخصيات الكبرى التي تعيش في الملحمة التوراتية: ابراهيم، اسحق، يعقوب، يوسف، موسى، يشوع بن نون، شاول، داود، سليمان، فكيف يمكن للعقل السليم ان يثق بما تسرده التوراة؟ لاسيما أن الأحداث السابقة على القرن التاسع قبل الميلاد قد جرت قبل عصر الكتابة» (٦٢).

والحقيقة ان الشك بالوجود الفعلي لشخصيات كابراهيم واسحق ويعقوب... الخ، شك له ما يبرره، وهو ان تأسس على جملة وقائع تاريخية فإنه ولا شك، سيغير كثيراً من الأفكار والآراء التي تكونت لاحول تاريخ المنطقة العربية وتاريخ اليهود القديم فحسب، بل وتاريخ أفكار التوحيد ونشأة الدين التوحيدي.

واقع الحال، مهما كان التاريخ — تاريخ منطقة الشرق — ينطوي على جماعة من الناس سمها ماشئت عبرية، اسرائيلية، يهوداوية، بنت علاقاتها مع الجماعات الأخرى عدائية أم سلمية، فإن الاستناد إلى وقائع تمت إلى مرحلة ما قبل الميلاد لا يعني أبداً أن هذه الجماعة قادرة أن تكون سندا تاريخياً لما نسميه اليوم — اليهود — بأن يستولوا بالقوة أم بطرق أخرى كالهجرة وما شابه ذلك على أرض يسكنها شعب توراث هذه الأرض بشكل مستمر مئات السنين.

فكيف إذا دلت الأبحاث التاريخية العلمية والوثائق التي بين أيدينا على بطلان الزعم بالحق التاريخي.

وإذا أجبر المؤرخ العربي على دخول معركة الجدل حول التاريخ، فهذا لأن الخصم المعاصر هو الذي جر العرب إلى هذه المعركة السجالية حول التاريخ، ليتجنب القناعة ان هناك مشكلة ليست هي وليدة مرحلة الاستعمار في القرن التاسع عشر، بل هي وليدة تاريخ طويل من الصراع، مع أن التاريخ لا يسجل أي صراع ذا قيمة بين العرب وبين

الجماعات المختلفة التي تدين باليهودية، فكما رأينا، استناداً إلى النماذج الثلاثة التي جئنا على ذكرها، فإن أي نموذج منها لا يتحدث عن اليهود إلا في مرحلة سابقة عن ميلاد المسيح، ومنذ تلك المرحلة حتى هذه اللحظة جرت تطورات تاريخية واجتماعية وقومية وأخلاقية، غيرت الطابع القديم للتاريخ بصورة كيفية جداً.

ولو أن المسألة تترد إلى حق جماعة تاريخي في فلسطين لتحدثنا عن حق أهل كريت المعاصرة كوارثين لجماعة الفلسطينيين، وعن حق الفرس وحق اليونانيين... الخ، بل ولأصبحت مصر المعاصرة وسورية والعراق عرض لجدل تاريخي بين العرب وغيرهم من الأمم المعاصرة التي ترى نفسها امتداداً لأقوام غارقة في القدم.

لقد احتفل مرة شاه ايران المخلوع بعيد تأسيس الامبراطورية الفارسية، وكان كورش الفارسي قد احتل في اواسط القرن السادس قبل الميلاد الأناضول والعراق والشام جميعها ومصر، فلماذا يكون حق اليهودي الأوروبي المعاصر في فلسطين اكثر من حق الفارسي المعاصر فيها، ألا يحق لليوناني المعاصر، إذا اعتبر نفسه سليل الاسكندر المقدوني، أن يحاجج اليهودي المعاصر بأن حقه في فلسطين هو الآخر مؤسس على وجود استمر مايقرب من ٣٣٢ ق.م إلى ٦٤ ق.م.

إن المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج (الوطن العربي الآن) قد أخذت طابعها العربي - الاسلامي الخالص منذ أكثر من ألف عام، رغم أنها خضعت خلال هذه الفترة لعدد كبير من الحكام غير العرب، واستعمرها الأوروبيون (وكان قد دخلها الصليبيون وداموا فيها مايقرب من مئتي عام). وهناك أقليات قومية احتفظت بعدد كبير من سماتها الثقافية، لاسيما تلك الأقليات التي احتفظت بوجودها التاريخي حتى الآن، كالبربر والأكراد، وهم جزء من سكان المنطقة الأصليين.

مايهمنا إبرازه هنا، ان عملية تدوين التاريخ، تاريخ المنطقة بعامة منذ آلاف السنين يجب أن لا تخضع لها جس يفرضه الاستعمار الصهيوني للمنطقة، بل يجب ان تبقى صعيداً يتناول بكل نزاهة ودقة، وهذا ماتفتقده أصلاً الايديولوجيا الصهيونية التي تسعى لرسم صورة لتاريخ المنطقة استناداً إلى رغبة ايديولوجية زائفة وتشكيل صورة للتاريخ لا توجد إلا في ذهن منشئها.

وبعد تطور علم التاريخ ووسائل ومناهج بحثه وتوافر أعداد هائلة من الوثائق والقدرة على فك رموز لغة الشعوب القديمة، لم يعد مقبولاً الاستناد إلى التاريخ البشري، إلى تاريخ جماعة تقاتل و..... تنتصر وتنهزم استناداً إلى رضا وعضب الإله الذي يحدد هو بالذات الوقائع والسيرورة التاريخية.

إن علم التاريخ وإن بدا علماً، هو أكثر العلوم تأثراً بالمواقف الايديولوجية المشبعة والأهواء والرغبات، لكنه محكوم على الأقل بجملة من الوقائع التي يختلف على فهمها وتفسيرها.

أما اختراع وقائع واحداث فهذا يبعدنا عن مجال علم التاريخ ويضعنا امام الأساطير التي لم تعد وعياً مطابقاً لمرحلتنا التي نعيش، وهذا هو حال علاقة الصهيونية بالتاريخ، أي أن الصهيونية هي مع كل ما يقال عن اختلاف داخلها بين المتدينين والعلمانيين، فإنها فيما يتعلق بالوعي التاريخي ليست إلا إعادة انتاج الأساطير مرة أخرى والتعامل معها كواقائع غير قابلة للدحض.

وإذا كان مجال الاختلاف في التاريخ هو الفهم والتفسير، فليس هناك ما هو موضوع خلاف مع الصهيونية، لأن الخلاف لا يقوم على فهم وتفسير التاريخ، بل نحن أمام تناقض مطلق بين الوعي الأسطوري الصهيوني، والوعي التاريخي العلمي، وإذا ما خف أحد من العرب لإعادة انتاج تاريخ المنطقة استناداً إلى التسلسل الأسطوري التوراتي بحجة تطابقه مع الشائع من التاريخ، فإنه في هذه الحالة لن يقدم خطاباً مختلفاً من حيث الطبيعة عن خطاب الصهيونية...

إن مجال التاريخ، هو مجال فعل الارادة البشرية في شروط جغرافية وسياسية وثقافية واقتصادية معينة، وهذا ما ينفي تدخل أي قوى غيبية عن التاريخ، كما ينفي عنه أية غايات غير بشرية.

أما حال الصهيوني مع التاريخ فهو على العكس تماماً، إن التاريخ لديه هو تاريخ تدخل الإله (يهوه) كقوة فوق التاريخ تسيره، عندها يغدو تاريخ الشرق العربي تاريخ صراع بين (يهوه) إله اليهود وبين شعوب المنطقة، أو بين اليهود الذين يدعمهم يهوه بوعده الإلهي وبين العرب الذين يعاندون إرادة الإله الذي لا ينفك يطلق التهديدات والوعود وإعلان الحرب النخ، عندها تغدو إرادة اليهود تحقيقاً لارادة يهوه.

في النموذج الأول من الخطاب التاريخي الذي يقدمه ابراهيم المسلم، سنجد كل مكونات الخطاب التاريخي الإسطوري. لكنه خطاب شائع، يجد قبولاً لدى الكثيرين. صحيح أنه ينتهي بتأكيد عروبة فلسطين في النهاية، لكنه خطاب يؤسس على نفس المرتكزات التوراتية المعروفة تقريباً مع بعض التغيير والمقارنة التالية شاهد على ذلك.

ابراهيم مسلم

١—خرج ابراهيم فاراً بدينه... تاركاً ارضه... في أور الكلدانية وحطت القافلة في

حاران ص ١٧

٢—ترك ابراهيم ارض حاران.. سارت القافلة باتجاه نهر الفرات وتأهبوا للعبور وتم العبور بإذن الله... دخل حلب ثم رحل منها إلى دمشق ثم رحل إلى فلسطين... وحطت قافلته في بيت أيل حيث اختار احد المرتفعات من الجبال وأقام خيامه في الجهة الشرقية. ص ١٨

٣—جهز ملك مصر جيشاً دخل فلسطين وقاتل ابراهيم وقومه، وانتهت الحرب في غير صالح ابراهيم وأسرت زوجته سارة... إن الله يأمره بالسفر إلى مصر. ص ١٩
٤—وأخيراً حطت القافلة من مصر في بيت أيل. ص ٢٠

٥—وبينما هو في سجوده سمع هاتفاً من السماء يقول له:
«يا ابراهيم ارفع عينيك إلى السماء وانظر إلى مشارق الأرض ومغاربها لسوف يعطيك الله هذه الأرض ويورثها لذريتك وسيجعل الله في ذريتك النبوة والكتاب» ص ٢١
التوراة

١—وأخذ شارح ابرام ابنه ولوطا بن هاران... فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك (التكوين ١١—١٢)
٢—وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان (ابراهيم ولوط وساراي) واجتاز ابرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة... ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت ايل ونصب خيمته التكوين ١٢—١٣

٣—فحدث جوع في الأرض فانحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هناك، فحدث لما دخل ابرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة... فأخذت المرأة إلى بيت فرعون. (التكوين ١٢—١٣)

٤—فصعد ابرام من مصر... وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت أيل. (التكوين ١٢—١٣)

٥—وقال الرب لابرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي انت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي انت ترى لك أعطيتها ولنسلك إلى الأبد. (التكوين ١٣—١٤)

حتى قصة انتصار داود على جالوت الكنعاني — الفلسطيني الأسطورية التي وردت في التوراة ينقلها السيد مسلم بطريقته الخاصة مع الاحتفاظ بجوهر الاسطورة.
جاء في التوراة: «واصطف اسرائيل والفلسطينيون صفاً مقابل صفاً. فترك داود الأمتعة التي معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة أخوته، وفيما هو يكلمهم إذ برجل مبارز اسمه جليات دجالوت، الفلسطيني من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين... وجميع رجال اسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً... فقال شاوول لداود لا تستطيع ان تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه... وكان لما قام الفلسطيني وذهب وتقدم للقاء داود أن داود أسرع وركض نحو الصف الفلسطيني... فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتله، ولم يكن سيف بيد داود، فركض داود ووقف مع الفلسطيني وأخذ سيفه واخرجه من غمده وقتله وقطع به رأسه» (٦٢).

ويقول مسلم «والتقى الجمعان، ودخل الخوف إلى قلب طالوت فلم يجزؤ على مبارزة جالوت قائد الكنعانيين... وكان داود عليه السلام يرعى غنمه، ولم يشترك مع القوم في هذه الحرب، فلما سمع بها حدث من قومه وخور عزيמתهم، فغضب لله وتقدم صفوف المقاتلين ليعلن أنه هو الذي سيبارز جالوت، وللمرة الثانية بدأ القوم يشكون في مقدرة داود على المبارزة، لكن داود بإيمانه بالله وعزيمته الصادقة تقدم وقتل داود جالوت، وانتهى هذا الفصل من ضعف هوان بني اسرائيل، وهزم الكنعانيون، فإن إيمان داود بنصر الله هو الذي دفعه لقتال هذا الجبار» (٦٣).

طبعاً بعد ذلك يستمر عرض تاريخ اليهود من السبي حتى الاحتلال اليوناني ثم الروماني ثم الفتح الاسلامي وسيادة العرب، الذي يدحض أي حق لليهود في فلسطين. والوعد الذي قطعه الله لابراهيم بأن يعطيه الأرض ويورثها لذريته، يتحول عند السيد مسلم إلى وعد لابراهيم قبل أن يرزق بذريته، «وإن كان الوعد لولد دون الآخر فإن اسماعيل عليه السلام هو أول أولاد ابراهيم، وحينما انتشر أولاد ابراهيم في الأرض وتفرقوا كان أبناء اسماعيل اكثر حظاً في امتلاك الأرض ومحافظةهم على وصية ابيهم ابراهيم عليه السلام» (٦٤) وبما ان اسماعيل هو جد العرب، فالعرب أحق من أبناء اسحق بأن يرثوا الأرض.

من السهولة أن تقبض على الأسباب التي تقف وراء نموذج كهذا من الوعي او التفكير.

فأغلب العرب، مسلمين كانوا أو مسيحيين وجميع المسلمين يعترفون بالديانة اليهودية كدين سماوي ويقولون بأن التوراة كتاب الله، مع الإقرار بأنه قد حُرف في مرحلة تاريخية معينة، وينظرون إلى أنبياء اليهود بوصفهم أنبياء الله، وتبدأ أصلاً سلسلة الأنبياء من آدم وشيث ونوح وأدريس وإبراهيم مروراً بأنبياء اليهود وعيسى وانتهاءً بالرسول العربي الكريم محمد، وكتب التراث العربي الاسلامي تجمع على هذا الأمر، وتكفي العودة لتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير وقصص الأنبياء للنيسابوري وغيرها للتأكد من ذلك، استناداً إلى القرآن الكريم.

إن شخصية ابراهيم الخليل وهي شخصية مركزية في تاريخ العرب واليهود من وجهة نظر دينية، عامل توحيد، فابناه اسماعيل واسحق اصل التنوع في الذرية، لكنهما يرتدان في النهاية الى ابراهيم أبي الأنبياء والصلة بين الاسلام وبين الابراهيمية صلة وثيقة — كما يرى مثلاً سعد زغلول عبد الحميد — «وتوثيق الصلة بين الاسلام والابراهيمية عن طريق اسماعيل أي العرب المستعربة، كما يصبح ابراهيم أبا للعرب الباقية من العاربة أيضاً عن طريق زوجة اسماعيل الجرهمية، وعن طريق هاجر ام اسماعيل يصبح المصريون أخوالاً للعرب».

لكن الصلة الأهم في النهاية، تلك التي تربط بين سكان المنطقة برابط الديانة التوحيدية، من وجهة نظر المسلم، التي تبدأ من ابراهيم مروراً بموسى وعيسى وانتهاءً بمحمد (ص) هذه الصلة ذات الطابع الانساني لا تترك مجالاً لأي تعصب قومي على العكس من الصهيوني المعاصر، الذي يرى في العالم أجمع عدوا لليهودية او اليهودي، بعد أن حول اليهودية من دين إلى قومية، وبالتالي حول اسحق ويعقوب «اسرائيل» إلى نبع عرق خاص يحمل من الصفات المتفوقة ما لا يحمله اي عرق آخر، ويمتلك من الوعود الالهية الخاصة ما لا يقص لشعب ان يمتلك، وهذا ما يفسر لنا لماذا مازال المسلم يبشر بإسلامه ويفرح عندما يعتنق انسان ما في افريقية أو آسية أو أوروبة الاسلام، ولماذا مازال المسيحي يبشر بمسيحيته، وقد اعتنقت شعوب المسيحية في وقت متأخر من القرن التاسع عشر في افريقيا، اما اليهودي فإنه قد انقطع عن التبشير باليهودية بوصفها دين فئة محددة من الناس وامتيازاً لا يحق لأحد ان يناله، مع ان اليهودية لم تستمر إلا بوصفها ديناً، وقد دلت التجربة التاريخية ان الوعي الديني، أو الاعتناق الديني اكثر قدرة على الحياة من أية أفكار أخرى.

إن العربي المسلم أو المسيحي وهو ينظر إلى اليهودية كدين فإنه عملياً لا يناسب اليهود أي عدا بـسبب أن ديانتـه، بالأصل تعترفان بـساوية الدين اليهودي ولا يجد حرجاً من القول إن بعض من يدينون بالدين اليهودي هم من أصل عربي. عندها يشترك اليهودي العربي مع أبناء جنسه من المسلمين والمسيحيين بالانتماء القومي.

والمؤرخ العربي وهو يضع نصب عينيه دحض الدعاوى الصهيونية فإنه لن ينجو شاء ام أبي من الموقف المتعاطف الذي قد يفسد الحياد المطلوب في دراسة التاريخ، وعندى أن الخطأ الذي يمكن أن يرتكب في هذه الحالة هو الانطلاق مسبقاً من أن مجرد وجود اليهود في مرحلة تاريخية غارقة في القدم، في بعض مناطق فلسطين، يعطي مبرراً للحركة الصهيونية ان تنجب القنـاعة لدى الآخرين — ولا سيما الأوروبيين — بأن لهم حقاً في فلسطين، وهو لهذا يريد ان ينفي اي وجود لشيء اسمه اليهود أو اليهودية في فلسطين، مع أن المسألة لا تـرتد أبداً إلى أن اليهود عاشوا في مراحل ما قبل الميلاد في أجزاء من فلسطين أولاً.

فوجود اليهود في أجزاء كثيرة من العالم ظاهرة تاريخية لها أسبابها، وهم الآن يعيشون في مناطق منذ فترة زمنية أطول بكثير من الفترة التي يدعون أنهم عاشوها في فلسطين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لنفترض ان اليهود قوم من الأقوام السامية التي عاشت في فلسطين فترة من الزمن، فمن ذا القادر الآن على التـدليل أن اليهودي الروسي أو الألماني أو الفرنسي أو الزنجي أو الحبشي هو استمرار هؤلاء اليهود الذين عاشوا في فلسطين في فترة الحضور الكنعاني؟

لأحد باستطاعته ان ينفي حق المؤرخ في التنقيب في الماضي، فهم التاريخ يقوم على دراسة الواقعة الانسانية التي مضت، والتاريخ شأنه شأن العلوم الانسانية والأخرى يعاني من مشكلة الموضوعية والدقة وعرضة للأهداف الايديولوجية . ولكن لم يشهد التاريخ صراعاً إلى حد يقرر فيه هذا الصراع على الحقائق التاريخية مصير الحاضر.

فالمؤرخون قد يختلفون مثلاً من أيهما أكثر أهمية في تاريخ مصر فرعون أم عبيده... من ذا الذي كتب هذه الوثيقة س أو ص.. حدثت هذه الواقعة ام لم تحدث، هل وجود ابراهيم حقيقة ام لا.. الخ أما أن يجري نقاش حول من هو أحق الآن في العيش فلسطين، الشعب العربي الفلسطيني ام اليهودي — الصهيوني الأوروبي الاستعماري، فهذا لغو فارغ لأن عروبة فلسطين حقيقة اسطع من وأقوى من كل أساطير التوراة ومعجزات أنبيائها.

المشكلة هي التالية ولا شيء يثيرها أبداً هناك حركة استعمارية صهيونية — يهودية أوروبية، نجحت — في مرحلة الاستعمار الأوروبي إلى المنطقة — في احتلال بلد عربي كل سكانه الأصليين عرب بالمعنى الدقيق للكلمة، وطردت وشردت شعبه وأقامت دولة غربية الوجه واليد واللسان في قلب المشرق العربي، وما زال وجودها مرتبطاً بالدول الاستعمارية القديمة والحديثة ولم يمر من هذه المشكلة حتى الآن أكثر من أربعين عاماً.

حق الشعب العربي الفلسطيني وحق العرب يقوم على زوال هذه الدولة كبقية من بقايا الاستعمار الأوروبي في المنطقة. هذه هي الحقيقة الساطعة التي يخفيها العجز العربي والتخلف العربي والتبعية العربية والحضور الاستعماري الجديد في المنطقة.

كيف السبيل إلى إزالة الاستعمار الصهيوني — اليهودي؟ هذا هو السؤال الذي يتطلب اجابة عملية ونظرية وكل ما عدا ذلك يعني الدخول في جدلٍ سفسطائي، والدوران حول المشكلة.

الهوامش:

- ١—جورجي كنعان، وثيقة اليهودية في العهد القديم دمشق ١٩٧٧ ص ٧
- ٢—جورجي كنعان مصدر سابق، ص ٢١
- ٣—جورجي كنعان، مصدر سابق، ص ٢١
- ٤—جورجي كنعان، مصدر سابق، ص ٢٢
- ٥—جورجي كنعان، مصدر سابق، ص ١٠١
- ٦—هانيء الهندي، محسن ابراهيم «اسرائيل» فكرة... حركة... دولة، دمشق، ١٩٥٨، ص ٣٠.
- ٧—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ٣٠
- ٨—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ٣١
- ٩—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ٩٤
- ١٠—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ٩٤
- ١١—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ١٠٦—١٠٧
- ١٢—س. ناجي، المفسدون في الأرض، دمشق ١٩٧٣، ط ٢، ص ١١٠
- ١٣—من الفكر الصهيوني المعاصر، بيروت ١٩٦٨، ص ٣٣
- ١٤—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٣٦—٣٧
- ١٥—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٣٩
- ١٦—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤٠
- ١٧—من الفكر الصهيوني المعاصر ص ٤١
- ١٨—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤١
- ١٩—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤١
- ٢٠—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤٢
- ٢١—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤٣
- ٢٢—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤٥—٤٦—٤٧—٤٨—٤٩
- ٢٣—د. رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية الاسرائيلية والروح العدوانية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٠٢ الكويت، حزيران ١٩٨٦، ص ٢٨
- ٢٤—رشاد عبد الله الشامي، مصدر سابق، ص ٢٨—٢٩
- ٢٥—رشاد عبد الله الشامي، مصدر سابق، ص ٢٩
- ٢٦—جورجي كنعان، العنصرية اليهودية، بيروت ١٩٨٣، ص ٢٩
- ٢٧—جورجي كنعان، المصدر السابق، ص ٣٥

- ٢٨—ندرة اليازجي، رد على التوراة، ص ١٥٣-١٥٥
- ٢٩—ندرة اليازجي، مصدر سابق، ص ١٧٥-١٧٦
- ٣٠—ندرة اليازجي، مصدر سابق، ص ١٨٨
- ٣١—ندرة اليازجي، مصدر سابق، ص ١٩٦
- ٣٢—يوري ايفانوف، احذروا الصهيونية، موسكو ١٩٦٨، ص ١٢
- ٣٣—الفكرة الصهيونية، النصوص الأساسية بيروت ١٩٧٠، ص ١٠-١١
- ٣٤—الفكرة الصهيونية، مصدر سابق، ص ٥٥
- ٣٥—الفكرة الصهيونية، مصدر سابق، ص ٥٦
- ٣٦—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٣٣
- ٣٧—١٤ شيمون بيرس، يوم قريب ويوم بعيد (من الفكر الصهيوني المعاصر) ص ١٣٧
- ٣٨—شرجا غافني، السلام الاسرائيلي من كتاب «الصهيونية فكراً وهدفاً وممارسةً و منشورات الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٥، ص ١٧٦
- ٣٩—ابراهيم المسلم، لمحات من القضية الفلسطينية ودور الملك عبد العزيز آل سعود، الرياض ١٩٨٥، ص ١٦
- ٤٠—لمحات من القضية الفلسطينية ص ١٧-١٨
- ٤١—لمحات من القضية الفلسطينية، ص ١٩-١٠
- ٤٢—لمحات من القضية الفلسطينية، ص ٢٣
- ٤٣—لمحات من القضية الفلسطينية، ص ٢٧-٢٨
- ٤٤—لمحات من القضية الفلسطينية ص ٣٠
- ٤٥—لمحات من القضية الفلسطينية، ص ٣١
- ٤٦—لمحات من القضية الفلسطينية، ص ٣٢
- ٤٧—انظر الدكتور احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دمشق، بلا تاريخ، الطبعة السادسة. ص ٤٦
- ٤٨—احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٦٤
- ٤٩—احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٦٥-٦٦
- ٥٠—احمد سوسة المصدر السابق، ص ٦٦-٦٧
- ٥١—احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٦٧
- ٥٢—احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٥٩١
- ٥٣—احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٦١٥
- ٥٤—يوسف سامي اليوسف، تاريخ فلسطين عبر العصور، دمشق ١٩٨٨، ص ٦٥

- ٥٥- يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٨-٩
٥٦- يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥٠
٥٧- يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥١
٥٨- يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥١
٥٩- يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق ص ٥٣
٦٠- يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥٦
٦١- يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٦١-٦٢
٦٢- الكتاب المقدس، ٤٥٥-٤٥٧
٦٣- ابراهيم المسلم، المصدر السابق، ص ٢٩-٣٠
٦٤- ابراهيم المسلم، المصدر السابق، ص ٣٦.